الحياة الطيّبة
السنة 21
العدد 36
شتاء- ربيع 2017 م

الافتتاحيّة

التأويل والهرمنيوطيقا وآليّات فهم النصّ

الشيخ حسن أحمد الهادي[1]

الحمدلله ربّ العالمين، وصلّى الله على سيّدنا محمدﷺ وعلى آله الطاهرين، وصحبه المنتجبين، وبعد...

عادةً ما يرافق التحوّلات العلميّة والمنهجيّة الكبرى التي تجري في العالم، على مختلف الصعد والمستويات، الكثير من التساؤلات والاستفسارات والدراسات المنهجيّة والنقديّة وغيرها. وقد أغرت هذه التحوّلات الجميعَ بممارسة السؤال والبحث العلميّ المعمّق، ومواجهة اليقينيّات والثوابت بالمزيد من أسئلة الشكّ والنقد والتقويم.

ولهذا، تمتلئ الساحات العلميّة في العالم اليوم بالأطروحات العلميّة والفكريّة والمنهجيّة الهادفة إلى تأسيس منهجيّات جديدة لعمليّات قراءة النصّ وفهمه، ولا سيّما ما يتعلّق بالنصّ الديني الذي تدور حوله الكثير من النقاشات والأسئلة، نظرًا لارتباطه بصياغة بنية المجتمع وتوجيهه لسلوك أفراده.

(1) رئيس تحرير مجلة الحياة الطيّبة التخصّصية.

لذلك، لا يمكن أن تموت الأسئلة والأبحاث والدراسات المنهجيّة المنقِّبة والناقدة لكلّ ما يدور حولها، فكلّ شيء في هذا العالم المعاصر، يؤسّس على الدوام للأسئلة، ويستدعي الإثارة والبحث، فلا مناص من السؤال والتساؤل، مهما بدا العالم متقدّمًا ومتطوّرًا. ولا ريب في أنّ كلّ تساؤل ينطوي على نقد، كما أنّ كلّ نقد يثير العديد من الأسئلة والتأويلات. لهذا كلّه، فإنّ إثارة الأسئلة وتنوّع العمل البحثيّ والتحقيقيّ على مسارات الواقع المختلفة، بات من ضرورات الحياة العلميّة والبحثيّة؛ لأنّه لا حقيقة ناصعة إذا لم تسبقها أسئلة الشكّ والنقد ورفع الحجب والأوهام؛ ففي رحاب البحث والسؤال، تتولّد عناصر الحقيقة، واستمرار النقد يعني فيما يعني نموّ الحقائق والأفكار والقناعات داخل المحيط الاجتماعيّ.

وليست المناهج التي تحكم أو تتحكّم أحيانًا بعمليّة الفهم وتأويل النصوص من القضايا الطارئة أو الحديثة؛ فالنصوص على اختلاف مجالاتها، تشريعيّة وأدبيّة ودينيّة وغيرها، تتّفق في كونها ذات بيئة لغويّة قابلة للفهم والتفسير والتأويل، بحيث يأخذ القارىء مكان المؤلّف في محاولة فهم النصّ، ويسائل القارئ ويحكّم خبراته في مقولات الكتابة، وتحريراته بإدخال عناصر أخرى في عمليّة فهم النصّ.

وإنّ الذي ينبغي التأكيد عليه هنا، هو أنّ ربط الهرمنيوطيقا بتفسير النصّ الدينيّ يجعل منها «قضيّة قديمة جديدة في الوقت نفسه. وهي، في تركيزها على علاقة المفسّر بالنصّ، ليست قضيّة خاصّة بالفكر الغربيّ، بل قضيّة لها وجودها الملحّ في تراثنا العربيّ، القديم والحديث على السواء»[1].

وفي هذا السياق، نجد أنّ التأويل -«حسب غادامير - حدثٌ في التاريخ، يتمّ فيه تفاعل النصّ والمؤوّل والذات والموضوع تفاعلًا متبادلًا. وفي كلّ

(1) أبو زيد، نصر حامد: إشكالية القراءة وآليات التأويل، ط7 ، المركز الثقافي العربي، 2005م، ص 13-14 (بتصرّف).

عمليّة فهم، وهي المسار الطبيعيّ نحو إطلاق العنان لسيرورة التأويل، لا بدّ من استحضار قوانين النصّ وقوانين السياق. وفي هذه السيرورة، يكون للأحكام المسبقة دور رئيس؛ كونها تشكّل الكون الوحيد الذي يجعلنا منفتحين على العالم والنصّ معًا... ولتاريخيّة التأويل علاقة حميميّة مع الزمن ومع الجوهر الزمنيّ للإنسان؛ فالزمنيّة معطىً هرمنيوطيقيّ غير قابل للاختزال، والمعنى لا يقدَّم هكذا دفعة واحدة، وبصورة فوريّة؛ لأنّ زمنيّة الفهم تتدخّل بشكل مباشر في إعادة بناء المعنى، انطلاقًا من استحضار المسافة الزمنيّة بوصفها عنصرًا مغذّيًا وبانيًا للسيرورة التأويليّة والتواصل المستمرّ مع التراث»[1].

الهرمنيوطيقا وفهم النصّ القرآنيّ

لقد استمدّ التأويل الهرمنيوطيقيّ جلّ شروطه من مركزيّة النصّ المقدّس، ومن تصوّر شائع، مؤدّاه انطواء هذا النصّ واشتماله على مستويات متعدّدة من الدلالات الدينيّة، وهي دلالات غير مباحة أمام الجميع، إلاّ لمن لديه من المعرفة والقدرة ما يتيح له سبر أغوارها. فالهرمنيوطيقا اقتصرت في بادئ الأمر على تأويل النصوص الدينيّة، لكنّها مدّت نطاق اهتمامها بعد ذلك لتشمل كلّ أنواع النصوص الأخرى، لغويّة وغير لغويّة.

وفي هذا السياق، تأتي الدعوات الكثيرة والأصوات المرتفعة التي شهدتها الساحة الفكريّة العربيّة والإسلاميّة من قِبل بعض المفكّرين والكتّاب وذوي الاختصاص إلى الاستفادة من الانجازات الغربيّة، القديمة والحديثة، في مجالات اللغة والألسنيّات والمناهج المختلفة... في استنطاق النصوص القرآنيّة وإحياء مدلولاتها بأثواب جديدة توائم متطلّبات العصر، وتجيب عن أسئلة اليوم، وتشبع تطلّعات المسلمين، المعرفيّة والبحثيّة، بدعوى عدم جدوائيّة المناهج المعتمدة منذ القدم في فهم كتاب الله وتفسيره.

(1) بريمي، عبد الله؛ مجلّة قضايا إسلاميّة معاصرة، العدد 57-58، 1-7-2014.

ولم يقف الأمر هنا، بل ردّ بعضهم الأزمات والتحدّيات التي تعصف بالمجتمعات الإسلاميّة إلى عجز هذه المناهج عن فهم النصّ القرآنيّ والدينيّ. لهذا، لا بدّ - بنظرهم - من التنازل عن هذه المناهج لصالح المناهج التي تملك القدرة على تجسير المسافة بين الماضي والحاضر، حتى لو أدّى ذلك إلى تأويل الوحي ونصّ النبيّ ﷺ المعصوم، والذي وصفه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ، إِنْ هُوَ إِلاَ وَحْيٌ يُوحَى، عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾[1] .

وهو ما نفهمه بوضوح عندما ندقّق النظر في ما طرحه بعض الفلاسفة الفرنسيّين[2] في نظريّة موت المؤلّف وولادة القارىء، وأنّ النصّ مجرّد رموز وإشارات ميّتة، والقارىء وحده يملك القدرة على إحيائها وبعثها للوجود من جديد...

وهذا ما طرحه بوضوح محمد مجتهد شبستري «**بشأن ماهيّة الوحي القرآنيّ التي تقوم على نفي الفهم الموروث للوحي، الذي يكون فيه الله قادرًا على محاورة الناس، ويمكن فيه اعتبار الكلام الوحيانيّ عين كلام الله**»[3].

ولهذا، أضحت قراءة النصّ القرآنيّ «أحد أهمّ انشغالات وتحدّيات النخبة الحداثيّة العربيّة خلال العقود الثلاثة الماضية؛ وذلك لما يتمتّع به القرآن الكريم من دور وتأثير مركزيّين في تشكيل العقل العربيّ الإسلاميّ، باعتباره - حسب اعتقادهم - أحد أهمّ العقبات المعرفيّة التي تقف عائقًا أمام تحقيق النهضة والتقدّم والتحرّر؛ فإنّ ذلك فرض على هذه النخبة العمل على محاولة «تبيئة» الهرمنيوطيقا والبحث لها عن سند ومرجعيّة

(1) سورة النجم، الآيات 3-5.

(2) بول ريكور، وحسب كتاب (موت المؤلّف) للناقد الفرنسيّ رولان بارت، والذي يتحدّث فيه عن أقانيم ثلاثة تشكّل الطريق التي تقود إلى لذّة النصّ، وهي: مفهوم النصّ ومفهوم الكتابة ومفهوم القارئ أو القراءة.

(3) نراقي، آرش: في نقد «ماهيّة الكلام الوحيانيّ عند محمد مجتهد شبستري» مجلّة قضايا إسلاميّة معاصرة، العدد 57-58، 1-7-2014.

داخل المنظومة الفكريّة الإسلاميّة، باعتبارها مشروعًا إنسانيًّا معرفيًّا يروم التأسيس لقواعد الفهم؛ فتمّ اعتبارها في مقابل التفسير بالرأي أو «**التأويل**» كما شاع قديمًا»[1].

ختامًا، لا بدّ من الإشارة إلى أنّه في الوقت الذي يتّفق المسلمون الذين يحفظون مناهج السلف في فهم القرآن، ويستندون إليها في دراساتهم وتفسيرهم، ويتعاملون مع القرآن كمرجعيّة معرفيّة تعود إليها كلّ محاولات التأصيل، بل والتجديد أيضًا؛ وفي إطار هذه العودة إلى كنف القرآن، واجهت الباحثين والمفكّرين أسئلةٌ شتّى، بعضها ينبع من طبيعة النصّ نفسه، وبعضها ينشأ من تطوّر الزمان وتوليده للأسئلة التي تدعو في كثير من الأحيان إلى إعادة النظر في التفسير ومنهجيّاته، وبعضها يرجع في جذوره إلى أفكار وافدةٍ، لها أشباه ونظائر في التراث الدينيّ، وفي الوقت عينه بينها وبين ما هو موجود في التراث فوارق واختلافات تكاد تسمح بدعوى التغاير بين الوافد وبين الأصيل في التراث. ومن بين هذه المستجدّات راج في السنوات الأخيرة استعمال مصطلح الهرمنوطيقا في عمليّة الفهم والتفسير، وقد طُرِحت الكثير من الأفكار الموافِقة والرافضة أو المتحفِّظة حوله...

وقد جاء هذا العدد من مجلّة الحياة الطيّبة، ليغطّي جنبةً من الدراسات المنهجيّة والتطبيقيّة في فهم النصّ القرآنيّ والدينيّ، من خلال مجموعة من الأبحاث والدراسات التخصّصيّة.

وإنّنا، إذ نقدّم هذا العدد لقرّائنا الكرام، نتمنّى أن يجدوا فيه إضافةً معرفيّة ومنهجيّة تأصيليّة، تسهم في بلورة الكثير من التساؤلات، والإجابة عن الإشكاليّات الواقعيّة أو المصطنعة والمبهورة بما قدّمه الغربيّون، حفظًا للتراث واحترامًا للعقول والأفكار النيّرة في عالمنا الإسلاميّ.

والحمد لله ربّ العالمين

(1) بن عاشور، صليحة، «الخطاب القرآنيّ والمناهج الحديثة في تحليله، دراسة نقديّة»، مجلّة الأثر، ص 15، نسخة إلكترونيّة.